

(البحوث والدراسات)

المجامع^(١)

مجمع دمشق وآفاق المستقبل

د. عبد الله واثق شهيد

تناولت الحلقة السابقة نشأة مجمع دمشق في العقد الأول من حياته الذي انتهى بصدور أول قانونٍ نظمت به الدولة عمله في عام ١٩٢٨. تلك النشأة التي سادها اضطراب وضعه في الدولة، واستقراره في المجتمع الذي أحاطه ببيئةٍ لقي فيها الدعم والتعاون والاحترام. قام المجمع في ذلك العقد بتنفيذ أهم أغراضه فأزال آثار التثريب في التعليم والكتابة والإدارة، وأصدر مجلته، ونظم المحاضرات التثقيفية الأسبوعية التي ضمنت له في المجتمع استمرار الدعم، واتبع في عمله منهجاً ذكياً وسليماً، وبراعةً في أسلوب معالجة المشكلات، فأحرز نجاحاً باهراً وفريداً في سيرته. وخُتِمت الحلقة بتلخيص التغيرات الطارئة على قانونه وأنظمته في القرن الماضي تهيئةً لعرض تطور أنشطته في هذه الحلقة، ومدى ما أحرز من نجاح وما لاقى من صعاب تراكمت بعد العقد الأول تدريجياً إلى أن استحوطت في نهاية القرن إلى قيود محكمةٍ ضيّقت على أنشطته بشدة.

أجأت تلك الضائقة المجمع إلى محاولة تعديل قانونه وتطويره، فلاقت مبادرته

(١) نُشر القسم الأول والثاني من هذه الدراسة في العددين السابقين من مجلة المجمع (المجلد

٨١، الصفحات ٤٧٥ - ٤٩٩، ٧٠٩ - ٧٣٠).

تجاوبًا وتشجيعًا من الدولة، فوضع المجمع في مشروعه ما ارتآه لتذليل تلك الصعاب.

تتناول هذه الحلقة عرض ما ذلل المجمع من الصعاب بتطبيق القانون الجديد، وما استعاد به من نشاط، وما لا يزال من المشكلات البنيوية مستعصيًا حله على القانون. وتُختتم الحلقة باقتراح بعض الأفكار لمتابعة تطوير القانون بحيث يصبح أقدر على معالجة ما يعترض تحقيق أغراضه من مشكلات بنيوية مشابهة.

انقضى العقد الأول من حياة المجمع، وتابع اللغويون عملهم على محورهم بجدّ ونشاط. إلا أن معظم ما كان يحتاج إليه جمهور الناس في حياتهم العامة، وما كانت تحتاج إليه الدواوين والمدارس من الألفاظ كان قد وضعه المجمع في العقد الأول، وأجاب على أسئلة الجمهور في صحة كثيرٍ من الألفاظ والمعاني، وفي كيفية الوضع والتعريب، فانخفضت غزارة ما يوجه منها إلى المجمع بعد سنواتٍ قليلةٍ من إنشائه. فتوجه اندفاع اللغويين فيه إلى العناية بالجملة، وناقشوا الخيارات الثقافية الممكنة وكان أهمها وضع معجم جديد في اللغة العربية، وتثقيف الجمهور بتنظيم إلقاء المحاضرات، في القاعة التي كان قد خصصها المجمع لهذه الغاية في مقره بالمدرسة العادلية. أما مشروع المعجم فيبدو مما كتبه الرئيس كرد علي، أنه طرح من خاصّة الناس على المجمع، إذ يقول في تقريره الثالث عن أعمال المجمع في عام ١٩٢٤ «وهناك أناس من الوطنيين أخذوا هذه السنة يريدوننا على بلوغ الكمال في أعمال المجمع... ومن ذلك مطالبتهم للمجمع بتأليف معجم لغوي على مثال المجمع العلمي الباريزي، ولعلمهم نسوا أن المادة غير متوفرة للقيام بهذا العمل النافع... ولاسيما وضع أكثر الأسماء الجديدة اللازمة في فنون العلم»^(٢). ودافع المغربي

(٢) ينظر أعمال المجمع العلمي العربي في دمشق عن سنواته الثلاث الأخيرة، مرجع سابق

على صفحات المجلة عن رأي المجمع في رفض قيامه بالمشروع^(٣). ثم يعود كرد علي للحديث عن المشروع في تقريره الرابع والسادس عن أعمال المجمع العلمي العربي فيذكر بعد ثلاث سنوات فقط، في الصفحة (١٤) من التقرير الرابع أن «في عزم المجمع أن ينشئ معجمًا صغيرًا يُدخِل فيه الأوضاع العلمية الحديثة...» ويعود بعد ثلاث سنوات أخرى أيضًا فيقول، في الصفحة (٣) من التقرير السادس «فللمجمع أمنية أخرى يعبد لها الطرق الموصلة منذ سنين وهو (!) إحياء كتب... ووضع معجم متوسط يضم إليه ما وضعه جماعته (جماعة المجمع) أو غيرهم من الألفاظ والمصطلحات العلمية...»، ثم يضم إلى هذه الأمنية أمنية أخرى في نفس التقرير والصفحة فيقول «وبذلك يتيسر له (للمجمع)... أن يقوم بعد حين بوضع معلمة عربية «دائرة معارف»، مستعينًا بمن أنبغت البلاد العربية من الكاتبين والباحثين...». إلا أن المجمع لم يُقدم على وضع معجم على غرار ما أقدم عليه المجمع العلمي الباريزي. وعلى الرغم من عزمه أن ينشئ معجمًا صغيرًا أو أن يضع معجمًا متوسطًا، فإنه استبعد هذا المشروع من خطته وكان مصيبًا في قراره، إذ لن يتوفر له من المصطلحات العلمية في عدة عقود، ما يسوغ له الإقدام على مثل هذا المشروع الكبير. إن تنفيذ مثل هذا المشروع يمتص معظم طاقات المجمع ولا يبقى له منها ما يمكنه من إنجاز أعمال تحفظ له تألقه في المجتمع، وهو أحوج ما يكون إلى التألق في تلك المرحلة التي شكك فيها بعضهم بجدوى وجوده^(٤). وكان من أمانيه - كما رأينا - وضع معلمة عربية بعد حين مستعينًا بالباحثين والكاتبين العرب. فكان المجمع، ممثلًا برئيسه، كان يفتش عن

(٣) ينظر عبد القادر المغربي: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ٥ الصفحة ٢٧٧.

(٤) ينظر أعمال المجمع العلمي العربي في دمشق عن سنواته الثلاث الأخيرة، مرجع سابق،

مشروعات يتطلب تنفيذها اندفاعه الشديد الذي ولّته الطاقات المخترنة وما اكتسبه من خبرة ومكانة. فاندفع لذلك لغويو المجمع ومن يدخل من الأعضاء في القسم اللغوي^(٥) منه، في تنفيذ مشروع محاضرات كنا عرضنا ملخصاً عما لاقاه من نجاح من قبل. ولقد عدنا إليه لأنه جزء من مشروعات المجمع في العقدين التاليين، واستنفد جزءاً هاماً من طاقاته، ولأن الهدف من إلقاء المحاضرات كان نشر الثقافة بين الجمهور، وهذا يعني أن موضوعاتها ستكون متنوعة وتخرج عن مقاصد المجمع. ومن هنا نشأ جدل طويل حول هذه المحاضرات، انقسمت فيه الآراء في ثلاثة اتجاهات: «فئة ترى أن يقتصر المجمع في محاضراته على اللغة وآدابها، لأنه من نوع الأكاديميات، وقد أسس لإحياء اللغة العربية وإنعاشها... وإغنائها بالمصطلحات الحديثة، وفئة ثانية ترى أن تتناول المحاضرات أنواع الآداب والعلوم والفنون... وفئة ثالثة لا ترى أن تكون المحاضرات من وظائف المجمع لأنه مركز للأبحاث اللغوية... والظاهر أن المجمع كان بحاجة ماسة إلى إقامة المحاضرات لإثبات وجوده حين تأسيسه ولقلة المعاهد والنوادي الثقافية حينئذ. ثم خفّ إلحاح هذه الحاجة حينما أنشأ مجلته... وأصبح في دمشق عدد من المعاهد والنوادي والجمعيات الثقافية...»^(٦). وانصرف اللغويون إلى إدارة المجلة وتطويرها وإلى تنفيذ مشروع المحاضرات التثقيفية الذي بدأ في ١٧ نيسان سنة ١٩٢١ وتوقف في ١٢ نيسان سنة ١٩٤٦، وكان كما يستخلص من إحصاء المحاضرات، أقرب ما يكون إلى التوقف ما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٤١ كما كان نصيب العلوم فيها لا يتجاوز

(٥) ينظر لتعريف القسم اللغوي، الفتيح: تاريخ المجمع العلمي العربي، مرجع سابق، الصفحة

(١٠) وحاشية في الصفحة (٧٢٤) من المجلد ٨١ من مجلة المجمع.

(٦) ينظر الفتيح: مرجع سابق الصفحتان ٧٤ و٧٥.

خمسة بالمئة^(٧).

كاد يصبح عمل اللغويين في المجمع راتبًا: إدارة مجلة المجمع والكتابة فيها، وإلقاء المحاضرات التثقيفية. وقد زين له النجاح الذي أحرزه في المحاضرات التثقيفية، استكمال دوره الثقافي في المجتمع، والقيام بمهام ذلك الدور التي هي مهام وزارة الثقافة في أيامنا هذه، فوسّع دوره ليشمل المراكز الثقافية، إضافة إلى دار الآثار، ومصلحة المكتبات العامة وحفظ الأضابير الوطنية، إذ سعى لإنشاء غرف للقراءة ونوادٍ للمحاضرات في حي الميدان وفي دار الحديث الأشرقيّة البرّانية في سفح قاسيون^(٨). ويذكر كرد علي في خطط الشام أن سعيه للحصول على الدار كُمل بالنجاح، و«أخذها المجمع العلمي العربي من الأوقاف ليجعل فيها بعد أن يرمّها خزانة كتبٍ يختلف إليها أهل تلك المحلّة»^(٩). لقد كان كرد علي يسعى بعزيمة وإصرار للقيام أيضًا بوظيفة المراكز الثقافية اليوم. ومما لا شك فيه أن هذه المهام امتصّت قدرًا كبيرًا من طاقات المجمع المخترنة، وأن ما ينشره الأعضاء اللغويون في المجلة كان مشتتًا يفتقد إلى وحدة الهدف التي تتجسد عادةً في مشروع يسعى المجمع إلى تنفيذه ليرقى به درجات على مدارج النجاح.

إن هذه الأسباب كانت من أهم ما حال دون تحقيق المجمع نجاحًا في خدمة أغراضه الأساسية في اللغة يضاهاي ما حققه منها في العقد الأول. وعلى الرغم من توقف محاضرات المجمع التثقيفية في ربيع عام ١٩٤٦ وقيام وزارة التربية فوزارة الثقافة

(٧) ينظر الفتيح: تاريخ المجمع العلمي العربي، مرجع سابق، الصفحات ٤٠-٧٣.

(٨) ينظر محمد كرد علي: تقريران عن أعمال المجمع، الصفحة ٦٢ من الثالث والصفحتان ٩ و٨ من السادس.

(٩) ينظر، محمد كرد علي: خطط الشام، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٥، الجزء السادس، الصفحة ٧٣.

بجميع المهام الثقافية التي كان يقوم بها المجمع، فإن التطورات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي مرت بالقطر وألقت عليه بتبعاتها، أَلَمَّت بالمجمع أيضاً، فضعضعت اتساقه مع البيئة التي كانت تحيط به، وانضافت نتائجها إلى تلك الأسباب، التي وإن لم تحل بمجموعها بينه وبين إحراز المزيد من التقدم، فقد حالت بينه وبين النجاح الذي حققه في العقد الأول من حياته. وإن في متابعة إحراز الأعضاء العلميين على محور تعريب التعليم العالي العلمي نجاحاً مرموقاً في عقود من القرن الماضي امتدت حتى أواخر الخمسينيات، ما حفظ للمجمع حتى ذلك الحين مقاماً رفيعاً في سورية وفي المجتمعات العربية عامة، وهذا ما سنتناوله باختصار فيما يلي.

شرح المعهد الطبي العربي يدرّس الطب باللغة العربية مع نشوء المجمع^(١٠)، فكان على أعضاء هيئة التدريس فيه، إيجاد المصطلحات المناسبة للألفاظ الطبية في التراث العلمي العربي، فإن لم يجدوا فيه بعيتهم كان عليهم وضع المصطلح المناسب. وقد رأينا أنهم اجتازوا أصعب مرحلة في تعريب التعليم العالي بنجاح فريد، يذكّر بالنجاح الذي حققه أسلافهم في عهد محمد علي في مصر. لقد رنوا منذ أواخر العقد الأول أو أواخر عقد العشرينيات إلى صنع معاجم مختصة وأعدوا لذلك العدة، بل ظهر بعضها في أواخره وإن لم يكن مكتمل الأسباب والصورة. إن تكامل مصطلحات اختصاص ما وتقيحها في سنوات لاحقة، دفع منجزها للتفكير باستيفاء ما تحتاج إليه مادة الاختصاص من المصطلحات التي لم ترد بعد معهم في دروسهم، كما دفع من ثم كلاً منهم للطموح إلى صنع معجم مختص

(١٠) ذكر الدكتور مرشد خاطر أن بعض المواد في مدرسة الطب بدمشق كانت تدرّس باللغة العربية بعد الانقلاب التركي (وقد وقع في عام ١٩٠٩)، ينظر مرشد خاطر: نشأة المعهد الطبي العربي بدمشق، مجلة المعهد الطبي، المجلد ١، الصفحة ٩.

بمصطلحات المادة التي يدرسها. وشجعهم على الطموح إليه، مبلغ النجاح الذي أحرزوه بالبحث الجاد الطويل الذي استمر دون كلال ولا ملل عقداً من الزمن أو بعضه أو أكثر، والذي كان يحدوهم إليه الإيمان بقضية مهمة التعريب. فكان ذلك باكورة نجاح المجمع في تعاونه مع المعهد الطبي العربي في التمكين لتعريب التعليم العالي. وظهر في المجمع معجمات مختصة في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، وأصبح وضع معجم مختص مطمح أعضاء هيئة التدريس في المعهد الطبي العربي منذ ذلك العقد، كما أصبح ذلك بداية المرحلة الثالثة في حياة المجمع، مرحلة صنع المعجمات المختصة. وهي مرحلة طويلة مقارنةً بالمرحلتين السابقتين، إذ امتدت حتى أواخر الستينيات من القرن الماضي، واختتمت في عام ١٩٧٠ بنشر معجم «مصطلحات تعويض الأسنان» للمجمعي الدكتور ميشيل خوري الأستاذ في كلية طب الأسنان. إلا أن غنى هذه المرحلة كان في نضج منهجية التعريب ووضع المصطلح لدى بعض أقطاب التعريب في مجمع دمشق. فقد أسس الأمير مصطفى الشهابي ببحوثه في هذا المجال - كما أشرنا من قبل - مدرسة احتلت منزلة رفيعة في الأوساط العلمية في الوطن العربي، وعالج في كتابه «المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القلم والحديث» الذي نشره في عام ١٩٥٦ مشكلات النحت والاشتقاق، وكتابة الحروف الأعجمية... ومعظم ما يمت في اللغة العربية بصلته إلى مشكلات المصطلح العلمي العربي، وكانت مدرسته أهم إنجاز حققه مجمع دمشق في المرحلة الثالثة وحتى نهاية القرن العشرين. وظهرت ملامح مدرسة أخرى في أعمال صلاح الدين الكواكبي الذي أولى فيها النحت ودراسة الأوزان عناية خاصة^(١١). أما مرشد خاطر أقدم أعضاء المجمع من هيئة التدريس في المعهد

(١١) ينظر عبد الله واثق شهيد: تطور المصطلح العلمي العربي، مرجع سابق، الصفحتان

الطبي العربي، فقد أسس مجلة المعهد وقاد بها حركة تعريب التعليم الطبي طوال حياة المجلة قرابة ربع قرن. وقام في أثناء هذه المرحلة أول عملٍ علميٍّ تعاوني في المجمع لصنع معجم مختص، وهو العمل العلمي التعاوني الوحيد الذي أنجز على المحور العلمي في المجمع، قام به مجتمعون من أعضاء هيئة التدريس في كلية الطب (بفروعها الثلاثة) هم، مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط ومحمد صلاح الدين الكواكي^(١٢)، فاتفقوا على نقل معجم كليرفيل المتعدد اللغات إلى اللغة العربية، وطبع النص العربي لهذا المعجم في مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٦. وشغلت دراسة هذا العمل العلمي الكبير المجمع الدكتور حسني سبيح ربع قرن من الزمن، ونشر تعليقا عليه سلسلة من المقالات في مجلة المجمع ما بين سنتي ١٩٥٩ و١٩٨٣. وتكاد تكون هذه الدراسة آخر عمل علمي قيّم على محور تعريب التعليم العالي في مجمع دمشق في القرن العشرين. ولما كان هذا العمل العلمي قد بدأ في الربع الأخير من المرحلة الثالثة أمكن عدّه جزءًا منها، إذ لا بد أن يكون منهج العمل وهدفه وآليات تنفيذه قد وضعت جميعها في عقد الستينيات أو قبله. لذلك يمكن القول إن إنجاز أعمال جمعية قيّمة على هذا المحور قد توقف أو كاد منذ نهاية المرحلة الثالثة في عام ١٩٧٠ تقريبًا، أو في أواخر الربع الثالث من القرن الماضي.

إن التقدم الذي أحرزه تعريب التعليم العالي العلمي في مراحل الثلاث يكاد يكون من صنع أعضاء المجمع العاملين والمراسلين من الهيئة التدريسية في المعهد الطبي العربي. ويبقى للمجمع، وللأمير مصطفى الشهابي من العلميين فيه، فضل

(١٢) في تطور المصطلح العلمي في مجمع دمشق ينظر: عبد الله واثق شهيد: ١- تطور المصطلح العلمي العربي، مرجع سابق المجلد ٧٧، الصفحات ٤٤٥-٤٦٢، و ٢- تجربة سورية الرائدة في تعريب العلوم في التعليم العالي، المجلد ٧٩ الصفحات ٤٦٧-٤٩٠، والمجلد ٨٠ الصفحات ٢٥٧-٢٧٤.

كبير في إضفاء محاسن اللغة العربية، مجلوة بمرونتها وغزارة معانيها، على أساليب التعريب ومنهجياته التي نشأت وتطورت معه. في أثناء هذه المرحلة الطويلة امتد نشاط تعريب التعليم العالي إلى الكليات المحدثة بُعيد الاستقلال، فنشر المجمعي الدكتور جميل صليبا مصطلحات الفلسفة في مجلدات مجلة مجمع اللغة العربية بعنوان «الاصطلاحات الفلسفية» بدءًا من المجلد ٣١ (عام ١٩٥٦).

ويلاحظ أن «نفيرًا» جماهيريًا للتعريب لم يصحب الاستقلال على وجهٍ يمكن أن يذكر «بالنفير» للتعريب في أعقاب خروج العثمانيين وقيام الدولة العربية الأولى في عصر النهضة العربية الحديثة. فقد استقر التعليم باللغة العربية في جميع مراحلها بسرعة، ولم يضطرب في أثناء الاحتلال الفرنسي اضطرابًا مثيرًا. ويبدو من تقارير شخصيات فرنسية قيادية في تلك المرحلة، أن التشجيع على تعريب التعليم العالي كان يخدم المصالح الفرنسية، فقد جاء في رسالة وجهها الكولونيل كاترو^(١٣)، مندوب المفوض السامي في دمشق بتاريخ ١٢ شباط سنة ١٩٢١، إلى الجنرال غورو يشرح فيها الصعوبات التي يعانها المعهد الطبي العربي في دمشق ويقترح المحافظة على معهدي الطب والحقوق، وإنشاء جامعة عربية في دمشق إرضاءً للرأي العام الوطني والإسلامي في سورية وفي الأقطار المجاورة ولخدمة المصالح الفرنسية. وكرر كاترو هذا التوجه في خطاب له في دار الحكومة في دمشق في أيلول من السنة نفسها^(١٤). ويظهر أن سياسة فرنسا في التعليم العالي في سوريا لم تتغير،

(١٣) عبد الكريم رافق: تاريخ الجامعة السورية، مكتبة نوبل، دمشق ٢٠٠٤، الصفحة ٧٢.

(١٤) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد الأول، الصفحة ٢٧٨، وتقرير الرئيس كرد علي عن

أعمال المجمع العلمي العربي عن سنواته الثلاث الأخيرة (١٩٢٢-٢٣،٢٤) الصفحة ٢٥.

إذ عاد بونور^(١٥) مدير المعارف العام في المفوضية العليا بعد عقد من الزمن فأكد بمحتوى كلمته التي ألقاها في حفل افتتاح السنة الجامعية سنة ١٩٣١، استمرار تلك السياسة. ولقد كنا أوردنا في دراسة سابقة^(١٦)، بعض المؤشرات التي تفسر موقف فرنسا الإيجابي من تعريب التعليم العالي في سورية وتبين أنه يخدم مصالحها، في تنافس مع البريطانيين الذين اتخذوا اللغة الإنكليزية في الأفطار العربية المجاورة المحيطة بسورية ولبنان لغةً للتدريس في التعليم العالي.

إن استقرار التعليم باللغة العربية في جميع مراحلها، وسياسة فرنسا التي شجعت على تعريب التعليم العالي، كانا من أهم أسباب إحاطة المجمع والتعليم العالي ببيئة تدعو إلى إشاعة الاطمئنان على مسيرة التعريب، ولا تستحثّ الهمم باستنفاها - خوفًا عليه - للقيام بقفزة أو طفرة فيه، كتلك التي جاءت مع التحرر من السيطرة العثمانية وسياسة التتريك التي اتبعتها السلطات العثمانية زمنًا طويلاً. لهذه الأسباب، ولأسبابٍ أخرى أقل أهمية لم يشهد تعريب التعليم العالي في مطلع عهد الاستقلال طفرةً أو قفزةً يمكن أن تذكر بالطفرة الأولى، التي أنجزها المجمع في العقد الأول من حياته.

إلا أن حاجة التعليم والثقافة والتجارة والصناعة إلى معجمات حديثة تستوعب ألفاظ الحضارة، اشتدت بعد الاستقلال، فظهر منها في الأسواق قواميس إنكليزية عربية، وفرنسية عربية بعيدًا عن المجمع. وبقيت جهود مجعنا موجهة إلى صنع المعاجم المختصة، ولكنها اقتضت فيها أيضًا على العلوم التي كانت ممثلةً فيه ولو بعضٍ واحد، فولدت في المجمع معاجم مختصة في فروع الطب

(١٥) مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد الثامن (١٩٣١)، الصفحات ٤٥-٥٠.

(١٦) عبد الله واثق شهيد: تجربة سورية الرائدة في تعريب العلوم، مرجع سابق، المجلد ٧٩،

الصفحات ٤٨٧-٤٨٩.

والصيدلة والزراعة، وامتد توالدها في الخمسينيات إلى العلوم الإنسانية (المعجم الفلسفي للمجمعي الدكتور جميل صليبا). إلا أن فروع العلوم الأخرى بقيت بعيدة عن المجمع، ولم يدخل المجمع مهندس، في غير الزراعة، إلا في أواخر المرحلة الثالثة، إذ انتخب المهندس وجيه السمان وسمي عضواً في المجمع في عام ١٩٦٨، ثم انتخب المهندس عبد الرزاق قدورة وسمي عضواً فيه في عام ١٩٧٠، وقد كنا أشرنا في دراسة سابقة^(١٧) إلى الآثار السيئة لهذا التقصير على المجمع وعلى التعريب.

واشتدت الحاجة بعد الاستقلال إلى المعاجم المختصة أيضاً في فروع العلوم والتقانة والتقنية، فطلبت وزارة الدفاع في عام ١٩٥٩ من المجمع تقديم العون في مشروع لوضع معجم عسكري فرنسي عربي، وألفت لجنة من بعض فنييها، وأسندت رئاستها إلى الأمير مصطفى الشهابي، وجعلت الأستاذ عز الدين التنوخي عضواً فيها، وكلاهما عضو في المجمع، وتلك كانت بداية خروج صناعة المعجمات المختصة من المجمع. ثم عادت وزارة الدفاع مرة أخرى لوضع «المعجم الكهربائي الإلكتروني» مستعينة بالمجمعين الأستاذ سعيد الأفغاني عضو مجمع القاهرة والدكتور عبد الرزاق قدورة عضو مجمع دمشق، ونشرت هذا المعجم في عام ١٩٧٥. وهكذا خرجت صناعة المعجمات المختصة من المجمع تدريجياً وعلى الوجه الذي كنا بيناه في دراسة سابقة أشرنا إليها قبل قليل^(١٨). لقد كان بوسع المجمع القيام بهذه المشروعات والاحتفاظ بصناعة المعجمات المختصة في حوزته مستفيداً مما يُجمع في صناعتها من الخبرات لتحسين وإيجاد تطويرها. أما الخبرات التي اكتسبها بعض العاملين في الجهات الأخرى التي أنجزت معجمات مختصة، بالتعاون مع مجمعيين أو مع غيرهم فمصيبرها النسيان والضياع، إذ لم

(١٧) ينظر عبد الله واثق شهيد: تطور المصطلح العلمي العربي، مجلة مجمع دمشق، المجلد ٧٧

(سنة ٢٠٠٢) الصفحتان ٤٥٦-٤٥٧.

(١٨) المرجع السابق. الصفحات ٤٥٨-٤٦١.

يكن من مهامهم جمع تلك الخبرات وحفظها. لقد كان بإمكان المجمع المبادرة إلى صناعة مختلف أنواع المعجمات المختصة، مستعيناً بتوزيع اختصاصات أعضائه وبالخبراء في مختلف فروع العلم والتقانة والتقنية، وتكوين خيرة ثمينية ونادرةٍ ذخراً له وللعربية. مع انتهاء المرحلة الثالثة خرجت صناعة المعجمات المختصة من المجمع، وشارك بعض أعضائه في وضع بعض المعجمات المختصة أو في نقلها إلى العربية أو في المشورة اللغوية في هذه الأعمال. ووضع بعض أعضاء هيئة التدريس في كليتي العلوم في عام ١٩٨٣ والآداب في عام ١٩٨٥ معاجم مختصة بمنأى عن المجمع، كمعجم الرياضيات المعاصرة (للأستاذة صلاح أحمد وموفق دعبول وإلهام حمصي) ومعجم علم النفس (للأستاذ فخر عاقل)، وتولت الاتحادات العلمية والنقابية ومكتب تنسيق التعريب ودور النشر الخاصة هذه المهمة.

لم يكن للمجمع في الربع الأخير من القرن الماضي مشروعات كبيرة يخدم تنفيذها بعض أغراضه الأساسية، كوضع المصطلحات العلمية في التعليم العالي، أو توحيد ما تستعمله جامعاتنا منها، أو وضع معجمات للمعاني يستوحى تصنيفها من حاجات المجمع إلى المعجمات المختصة في العلوم، تخصص فيها فصول لكل من الحرارة والصوت واللون والحركة...، أو كتنسيق تعليم وتعلم اللغة العربية، أو توحيد قواعد الإملاء، أو غير ذلك مما تُستقرأ أهميته من بين أغراض المجمع. وقد أحيا بعض الأمل في إصلاح توجه المجمع في مسيرته، اعتماده في العقد الأخير من القرن الماضي إقامة ندوات في هذا المنحى، نُخصت كل منها لمعالجة أحد الموضوعات المتصلة بأغراضه الأساسية. فكان منها: اللغة العربية والإعلام، واللغة العربية والتعليم... إلا أن أهداف ندوات في مثل هذه الموضوعات الأساسية تكون بعيدة المنال، لا يتحقق الوصول إليها بندوةٍ وحيدةٍ تعدّ دراساتها في أشهر قليلة أو أسابيع. إن مثل هذه الموضوعات، لا يتحقق الوصول إلى أهدافها غالباً إلا في

مجموعة من الندوات تتدرج أهدافها المرحلية مقتربة باطراد من الهدف الأساسي البعيد المستهدف. والمجمع كان بعيداً عن اعتماد التخطيط والخطط بالمعنى المذكور، خاصةً في الربع الأخير من القرن الماضي. وإن وردت كلمة خطة في تقارير المجمع السنوية فإن ورودها لم يكن أكثر من تعبير عن مجموعة الأمان التي تمت اللجان اعتمادها في عامٍ مقبلٍ دون النظر غالباً في علاقتها بمثلتها في عامٍ سابقٍ، أو في مدى توفر الطاقات البشرية والمالية لتنفيذها. لذلك أيضاً كانت التوصيات التي تقرر في ندوةٍ تبقى حبيسة الأوراق التي سجلت عليها، أو محفوظة في مطبوعات المجمع، ذلك لأن المجمع كان ينهي مهمته في كل ندوةٍ بوضع التوصيات. ثم رأى ضرورة السعي لمتابعة تنفيذها لدى أصحاب القرار وصانعيه في الوزارات المعنية، إلا أن نتائج مسعاه كانت مخيبة للآمال. وتلك كانت نتائج منتظرة لأن نجاح أي ندوةٍ أو خطةٍ مستبعد إذا ما وضعت أو نُفذت بمعزلٍ عن المعنيين بها. ولا بد من التعاون مع أولئك المعنيين في تحديد توجه الندوة، وتشجيعهم على المشاركة فيها بدراسات يعدونها، فإن لم يكن فيما يدور فيها من مناقشات، وفي اقتراح ما يروونه مفيداً من التوصيات القليلة العدد التي لا يصعب تنفيذها. وإن إعداد دراساتٍ وبحوثٍ، لما يراد له النجاح من مثل هذه الندوات، يحتاج إلى وقتٍ كافٍ يصبح معه الإعلان عن الندوة قبل سنةٍ أو أكثر من موعد انعقادها ضرورياً، ويستحسن أن يكلف بعض الباحثين تقديم البحوث الهامة في موضوع الندوة، أو أن يعلن عن تخصيص جوائز المجمع التشجيعية لأحسن البحوث المقدمة فيها. أما ندوات المجمع التي أقامها في العقد الأخير من القرن، فإنها لم تستوف أياً من الشروط المذكورة، ولم تكن بينها روابط توحى بتوجُّه ثابتٍ لمتابعة معالجة بعض قضايا اللغة كما حددتها أغراض المجمع، ووفق منهج مدروسٍ ورؤيَةٍ رُسمت خطوطها الكبرى على الأقل. لقد خلت أعمال المجمع في أواخر القرن الماضي إذًا من المشروعات التي لها أهداف

محددة، كمشروع إزالة آثار التتريك ومشروع نقل معجم «كليرفيل» إلى العربية، وخلت من مشروعات المعجمات المختصة. أما مشروع المحاضرات التثقيفية فلا يدخل ضمن مفهوم المشروعات المذكورة إذ ليس له هدف محدد ينتهي المشروع بالوصول إليه، فهو من أنشطة المجمع وليس من مشروعاته التي لها هدف محدد الأغراض والمدة الزمنية، وتوقّفه في عام ١٩٤٦ لا علاقة له بهدف حُدد من قبل. وليست المجلة في وضعها الحالي مشروعًا بهذا المعنى، إلا أن بالإمكان صنع مشروع بعيد الأمد تحدّد أهدافه المرحلية خطةً بعيدة الأمد تصوّر مراحل تطوير المجلة محتوياً وتوجّهاً وإخراجاً وتوزيعاً. وخلق المجمع من المشروعات يبيّن إنتاجه شيئاً يصعب ويندر استخلاص أعمال مميزة منه.

لقد تطورت البيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المحيطة بالمجمع تطوراً كبيراً ما بين أيام المجمع الأولى وأواخر القرن.

أما البيئة الاجتماعية الاقتصادية، فقد تدرّجت مطالب المعيشة في الارتفاع باطراد، وازدادت قسوة وإرهاقاً للناس. وعلى الرغم من أن القناعة كانت تسود البيئة الاجتماعية إبان إنشاء المجمع، وأن المثقفين كانوا يتطوعون لأداء ما يكلفهم المجمع عمله، فإن الأعضاء العاملين (الموظفين) كانوا كما يذكر كرد علي، أعضاء في مجلس المعارف الذي انقلب إلى مجمع علمي «و(كانوا) يصرحون بأني إذا لم أقبل بالبقاء (رئيساً لمجلس المعارف) فالحكومة تصرفهم من الخدمة فأكون السبب في قطع أرزاقهم وهم أرباب عيال»^(١٩). فمعيشة الجمعيين كانت صعبة قاسية منذ تلك الأيام وازدادت قسوة وزادت مطالبها إرهاباً للناس، وتغير قانون المجمع في القرن الماضي عدة مرات، وصحب التغيرات محاولات لتحسين المكافآت المالية

(١٩) ينظر محمد كرد علي: المذكرات، مطبعة الترقّي بدمشق، سنة ١٩٤٨، الجزء الأول، المجمع العلمي، الصفحة ٢٧٧ .

على الدراسات والأعمال، إلا أن اتساق وضع المجمع مع البيئة الاجتماعية الاقتصادية المحيطة به كان يزداد اضطراباً مع المستجد من القوانين، حتى أضحت النظم الإدارية والمالية للمجمع في أواخر القرن غريبة عما كان يسود البيئة الاقتصادية الاجتماعية من تلك النظم. يُروى عن أحد الأعضاء في الربع الأخير من القرن الماضي قوله: إن تعويض حضور جلسات المجلس كان يمكنني من الذهاب لحضور الجلسة، أما العودة من المجمع إلى المنزل فعليّ أن أتدبر أمرها! وتقع المكافأة على العمل العلمي في منزلة مالية كمنزلة حضور الجلسات. فهل بإمكان من استنفدت مطالب المعيشة المطردة الارتفاع طاقاته أن يشارك في تنظيم مشروع رئيسي أو في تنفيذه؟ لاشك أن مطالب المعيشة لم ترهق جميع أعضاء المجمع دفعةً واحدة، لاختلاف أوضاعهم المادية، ولكن نسبة من أرهقته منهم أخذت ترتفع مع تقدم الزمن، حتى شملتهم جميعاً أو كادت في الربع الأخير من القرن.

في هذه البيئة، التي تدعو من جهة إلى إشاعة الطمأنينة على مسيرة التعريب، ولا تستنفر الهمم خوفاً عليه، والتي أرهقت فيها مطالب المعيشة من جهةٍ أخرى أعضاء المجمع، لا يُنتظر أن ينجز المجمع أعمالاً تضاهي ما أنجزه منها في العقد الأول من حياته، ولا أن يفكر في اعتماد مشروعات أساسية كتلك التي مرّ ذكرها.

أما البيئة الثقافية فقد تطورت أيضاً تطوراً كبيراً، فمنذ عقد الأربعينيات زاد عدد النوادي والجمعيات الثقافية، وانتزعت جامعة دمشق بكلياتها الجديدة في أواخر هذا العقد دور المجمع في تنظيم المحاضرات التثقيفية، فتوقف برنامج تلك المحاضرات. ثم حلت بعد عقدٍ وبعض العقد من الزمن وزارة الثقافة محل المجمع في تنفيذ طموحاته الثقافية كلّها، فأُسست المراكز الثقافية، ثم أنشئت هيئة مهمتها

وضع موسوعة (معلمة) عربية كان إنشاؤها حلم مؤسس المجمع، وألحقت برئاسة الجمهورية تعبيراً عن أهمية المشروع في الدولة....

وفي هذه البيئة تراجع التعليم أيضاً، وهو لا يزال يتقهقر، فلم نعد نجد في أواخر القرن، في كلية الطب، أمثال الطالب مختار هاشم، الذي كان ينشر، في عام ١٩٣٥^(٢٠)، على صفحات مجلة المعهد الطبي العربي، ما يضع من مصطلحات في الطب، وما يراه في بعض ما نُشر من مصطلحات مجمع فؤاد الأول (بجمع القاهرة)، ولا تزال بعض المصطلحات التي وضعها معتمداً في أيامنا هذه. ولم نعد نجد فيها من الطلاب أمثال عبد السلام العجيلي الذي وضع مقاماته وهو طالب في الكلية.

أسس محمد كرد علي المجمع في عام ١٩١٩ وهو في الثالثة والأربعين من العمر وكان معه، عضواً فيه وفي مثل سنّه، عبد القادر المبارك وفارس الخوري. أما عز الدين علم الدين التنوخي، وهو من المؤسسين، فلم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر، وكان أزهرياً تخرج في الزراعة من مدرسة عليا في فرنسا. وفي مثل سنّه أيضاً كان مرشد خاطر عضواً في المجمع إبان تأسيسه. وظل المجمع في عقد العشرينيات يُرُفد بأعضاء في مقتبل العمر، كان منهم الشيخ بهجة البيطار في التاسعة والعشرين وتحليل مردم في الثلاثين والأمير مصطفى الشهابي في الثالثة والثلاثين، وكانوا جميعاً من ذوي الشأن في المجمع. إلا أن قانون المجمع ذا الرقم ٦٠/آ.س الصادر في عام ١٩٤٣ جعل سنّ الخامسة والثلاثين حداً أدنى لسن المرشح لعضوية المجمع، ولعلمهم أخذوا بهذا الشرط قبل صدور القانون، إذ لا نجد بين الأعضاء الذين انتخبوا بعد صدور أول قانون للمجمع (القرار ذو الرقم ١٣٥ الصادر في عام

(٢٠) ينظر مختار هاشم: مصطلحات علمية، مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد العاشر (١٩٣٥) الصفحة ٣٧٦.

١٩٢٨) من كان لدى انتخابه عضوًا عاملاً دون الخامسة والثلاثين. ونلاحظ أن متوسط عمر العضو العامل عند انتخابه قد ارتفع بعد سنة خمس وثلاثين وتسعمئة وألف إلى الثامنة والأربعين ثم راوح ما بينها وبين السادسة والأربعين حتى منتصف الستينيات من القرن الماضي (ينظر الشكل رقم ١)، ثم أخذ يرتفع بشدة ودون توقف حتى قارب في أيامنا هذه السبعين. لذلك كان متوسط عمر العضو العامل في المجمع في ارتفاع مستمرٍ وشديدٍ في بعض الفترات من عمر المجمع، وقد جاوز الخامسة والسبعين أيضًا في أيامنا هذه! (ينظر الشكل رقم ٢)

يطرح علينا هذا الواقع أسئلة عديدة مختلفة أهمها، ما هي أسباب هذا الارتفاع وما هي انعكاساته أو ارتداده على مقدرة المجمع على القيام بمهامه؟

أما أسبابه فأهمها انخفاض مستوى التعليم الذي رافق اتساع رقعته اتساعاً تضاعل أمامه ما حُصص له من طاقات. وأهم مظاهر انخفاض مستواه، انخفاض مستوى ثقافة جمهرة المتعلمين. والثقافة شديدة الارتباط باللغة، فاللغة حامل الثقافة، توسع آفاقها وتزّين محتواها وتبدع تميّزها وتصور هويتها. وإن التنمية اللغوية والترقية الثقافية هما في تفاعل مستمر، تقدّم كل منهما سبب في تقدم الأخرى، وتعثّر أي منهما يسبب تراجع الأخرى. وهذا يعني أن انخفاض مستوى التعليم يرافقه انخفاض في مستوى التنمية اللغوية وتخلّف في المعرفة اللغوية. ورافق ذلك كله إرهاق متطلبات المعيشة الناس ومنهم المتعلمون. فانصرفوا إلى تأمينها، فأهملت الترقية الثقافية، وتخلّفت المعرفة اللغوية لدى جمهرة المتعلمين. لذلك كان ارتقاء غير اللغويين من جمهرة المتعلمين، إلى مستوى مقبول في اللغة العربية يتطلب مثابرة على الإعداد زمنياً طويلاً يزداد طولاً باطراد مع انخفاض مستوى التعليم. وهؤلاء هم من الذين توجههم طبيعة العمل الذي يمارسونه وطلب النجاح فيه إلى العناية بلغتهم، وقد يصبح بعضهم لغويًا. إلا أننا نجد بين اللغويين من استحوذت عليه اللغة العربية مذ كان يافعًا، وأولئك هم الذين أشرنا إليهم من قبل، تتجاوزهم الجامعات العربية فيقضون سنوات العطاء من عمرهم خارج الوطن، ولا يعود إليه جُلّهم إلا وهم على مشارف السبعينيات من العمر.

وأما انعكاسات استمرار ارتفاع متوسط عمر العضو العامل عند انتخابه على قدرات المجمع، فهي تراجع تلك القدرات بسبب تراجع قدرات الناس كلما تقدموا في العمر إلى ما بعد الأربعينيات أو الخمسينيات منه على أبعد تقدير.

كان استمرار ارتفاع متوسط عمر المنتخب عضوًا في المجمع، وجمود نظمه الإدارية وتخلّفها، أهم المشكلات التي واجهها وتصدى لمعالجتها في أواخر القرن

العشرين. كانت المحاولة الأولى لمعالجة الوضع المتأزم تطوير نظم المجمع، قانونه ولائحته الداخلية ونظامه الداخلي. وبدئ بتطوير القانون، وصيغت المقترحات في قانونٍ جديدٍ، ارتفع فيه عدد أعضاء المجمع من عشرين إلى خمسةٍ وعشرين عضواً لتحسين تمثيل فروع العلوم المتزايدة المختلفة فيه. وجعل فيه للمجمع مؤتمراً سنوياً يستعرض فيه، في «تقرير سنوي» ما قام به في سنةٍ مضت من الأعمال، وفي «خطته العلمية» ما سيقوم به في العام المقبل، ويُناقش التقرير والخطة في جلسات مفتوحة يُستمع فيها إلى آراء العلماء المدعوين. وأحدث القانون هيئةً فنيّةً في المجمع على غرار مثيلاتها في الجامعات، تختص بذور البحث العلمي اللغوي، وينمي فيها المجمع بحوث المشكلات التي يعالجها. وفتح القانون باب التعاون مع الجامعات في بحوثه فأجاز تفرغ أعضاء هيئة التدريس فيها للبحث العلمي في المجمع، كما أجاز في هذا التعاون الإشراف المشترك على بحوث إعداد الشهادات العليا في مختلف فروع اللغة العربية، وفي علاقاتها بالمعلوماتية، فأتاح للمجمع تكليف العاملين المختصين فيه من المجازين في اللغة العربية، أو من أعضاء الهيئة الفنيّة في اللغة العربية أو المعلوماتية، وتكليف طلاب الدراسات العليا من خارج المجمع إعداد شهادات (دبلومات) عليا في مواضيع يقترحها المجمع تكون جزءاً من خططه العلمية التي يضعها لخدمة بعض من أغراضه المحددة.

وأجاز القانون لمجلس المجمع تأليف ما يراه من اللجان الدائمة والوقوتية لدراسة الموضوعات التي يحددها لها، والاستعانة فيها بالخبراء وجعل قواعد منح المكافآت على الأعمال العلمية وعلى حضور جلسات المجلس والمكتب واللجان مستثناهً من الحدود القصوى المنصوص عليها في القوانين، وتصدر بقرار من رئيس مجلس الوزراء بناء على اقتراح المجمع، وأحال على اللائحة الداخلية وضع الأحكام التفصيلية. وحدد القانون التعويض الشهري لعضو المجمع فأنتهى بذلك تلكؤ السلطات

الحكومية (في التعليم وفي المالية) زهاء نصف قرن في تحديد هذا التعويض، الذي كانت اللوائح الداخلية أو ما يقوم مقامها قد أشارت إليه. واستُكمل انفراج الأزمة التي كانت مستحكمة في جهود الأنظمة بتطوير اللائحة الداخلية، فتوسع المجمع في تأليف اللجان الدائمة وفي أحكام تأليفها ومشاركة الخبراء فيها.

شرع المجمع في تطبيق قانونه الجديد ذي الرقم ٣٨ الصادر في ٦/٦/٢٠٠٠، فعُدل اللائحة الداخلية تنفيذًا لأحكامه ولتتسق أحكامها مع أحكامه، وصدرت اللائحة الجديدة برقم ٢/ت.ع بتاريخ ١٥/١/٢٠٠٢، ثم أعاد المجمع تأليف اللجان كما وردت في القانون ولائحته الداخلية. وبدأت تباشير النشاط في المجمع في لجان المصطلحات العلمية، التي كانت من قبل لجنة واحدة تبحث في جميع مصطلحات العلوم والآداب والاقتصاد والمجتمع! فأربت اللجان الدائمة لمصطلحات العلوم والتقانة، في اللائحة الجديدة، على خمس لجان، تنسق أعمالها (وأعمال لجان المصطلح الأخرى) لجنة تنسيق المصطلح. وقد أنهت لجنة توحيد مصطلحات الفيزياء المرحلة الأولى من معجم مصطلحات الفيزياء الموحدة، ونوقشت حصيلتها مع منتدي الجامعات، كما نوقشت مصطلحات هذا المعجم في لجنة تنسيق المصطلح. وصدرت الطبعة التجريبية الثلاثية اللغات (العربية والإنكليزية والفرنسية) وحوت الأصول اليونانية واللاتينية (وبعض العربية والإسبانية) للمصطلحات، وتعمل اللجنة على وضع تعريفات مختصرة للمصطلحات ستصدر في طبعة لاحقة. وتقوم لجان المصطلح الأخرى بتوحيد مصطلحات العلوم الطبيعية (علوم الحيوان والنبات والجيولوجيا) والزراعية، وبوضع معجم لألفاظ الحضارة المعاصرة...

وعلى ما يبدو من تطبيق أحكام القانون الجديد، فإن معالجة الكثير من المشكلات التي كانت سببًا في تعثر نشاط المجمع في أواخر القرن الماضي،

أصبحت ممكنة. ولا يلوح في آفاق المجمع من المشكلات المستعصية سوى مشكلة استمرار ارتفاع متوسط عمر الأعضاء عند انتخابهم، وما يمكن أن يتعدّر معها على المجمع تحقيقه من تطوير أساليب عمله، وقد تفاجئنا بعد معالجتها أو في أثنائها مشكلاتٌ أخرى كان اهتمامنا منصرفاً عنها.

كانت المحاولة الأولى لمعالجة هذا الوضع المتأزم، اشتراط الخامسة والخمسين حداً أعلى لعمر المرشح لعضوية المجمع، فأخفق المجمع في إيجاد مرشحين يتوفر فيهم هذا الشرط في العلوم الطبيعية والهندسة الميكانيكية واللسانيات، ولم يُجدِ رفع الحد الأعلى للسن إلى الستين!

فما هي مؤهلات مجمع تجاوز متوسط عمر العضو العامل فيه الخامسة والسبعين؟ لاشك أن خبرات أعضاء مثل هذا المجمع في الشؤون التي تثيرها أغراضه أصبحت كبيرة، تمتها التجارب الكثيرة التي عانوها، فجعلت مقدرته على تقديم المشورة فيما يعرض عليه كبيرة أيضاً وقيّمةً، وأهّلته للقيام بتنفيذ مشروعات كبيرة مستعيناً بالخبراء.. إلا أن نصيب الإبداع قليلٌ فيما يقدم من حلول للمسائل المعقدة فيها، التي تحتاج معالجتها إلى اقتراح الخبرة بالإبداع. وقد عانى كرد علي منذ بداية تأسيس المجمع عدم اتساق أعمار زملائه في المجمع أو أجيالهم فدكر في التقرير السادس عن أعمال المجمع بأن «... المجمع يستفيد من أكثر أعضائه إلا من بلغوا من السنّ عتياً، فإنهم متقاعدسون عن خدمته على غير إرادتهم^(٢١)...» وهو في هذا التقرير الذي يطّلع عليه الأعضاء، أشار إلى الأعضاء المرسلين. إلا أنه في مذكراته عرّض بكبار السنّ من الأعضاء العاملين صراحةً، فقال «وبدأت رئيساً على جماعةٍ من الشيوخ...^(٢٢)»، وكان أغلبهم شيوخاً كبار السن.

(٢١) ينظر التقرير السادس عن أعمال المجمع، مرجع سابق، الصفحة ٦.

(٢٢) ينظر كرد علي: المذكرات، مرجع سابق، الصفحة ٢٧٧.

يجب أن يكون إذاً إعادة متوسط أعمار أعضاء المجمع إلى أقصى حدود الكهولة كبيراً، هدفاً هاماً من أهداف مشروع جديد لإصلاح أوضاع المجمع وإعادة تأهيله للقيام بتحقيق أغراضه بيسر.

هذا الواقع هو العقبة الكأداء أمام كل سبل تمكين المجمع من القيام بمهامه الأساسية، وهو أيضاً سبب في نشوء عقبات أخرى تحول دون تطوير وسائل عمله. ولقد استعصى تدليل هذه العقبة باشتراط حد أعلى لسنّ المرشح لدى البحث عن مرشحين في اختصاصات علمية أساسية وتطبيقية (العلوم الطبيعية والزراعة والهندسة) ولغوية أيضاً (اللسانيات). ويدعوننا ذلك إلى محاولة إعداد بيئة مواتية لتنشئة مجمعين، يسهر المجمع على إعدادها، وإعدادهم فيها ضمن أنشطة معالجة الموضوعات التي تحقق معالجتها أغراضه. أما هذه الموضوعات فشديدة التنوع، لأن المجمع معنيٌّ بجميع الموضوعات التي تطرح عليه مما يتعلق بترقية اللغة العربية، ما هو منها طارئٌ وقيٌّ له غالباً صفة الاستعجال في معالجته، وما هو قدم استعصى تيسير معالجته زمناً طويلاً، ويقع بينهما طيف عريض من الموضوعات، كتطوير وضع المصطلح ضمن مفاهيم وقواعد المصطلحية، وتطوير معجم المعاني، على الوجه الذي أشرنا إليه سابقاً، باعتماد علم المعجمات أو المعجمية... هذه موضوعات كبيرة الأهمية، وعلى مجمعنا أن يسهم فيها، وأن يضعها في مقدمة مشروعاته ومهامه، وهي مترابطة متكاملة. وقد نالت من المجمعين عناية خاصة، فقد تعلق من قَبْل همّة المستشرق ماسينيون، عضو مجمع القاهرة خاصة بوضع معاجم عربية مختصة وعلمية حتى تتمكن اللغة العربية من التعبير عن العلوم العصرية «لأنه كان يؤمن أن ذلك هو غاية المجمع الأساسية»^(٢٣). ويذكر إبراهيم مذكور أن مجمع القاهرة كان «يقف نحو ٧٠٪ من نشاطه على جمع المصطلحات ومناقشتها

(٢٣) ينظر محمد رشاد الحمزاوي: أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مرجع سابق، الصفحة ٩٦.

وإقرارها^(٢٤).

ومثال الوقي الطارئ من المواضيع، إصلاح لغة الدواوين وتصحيح لغة الكتب المدرسية، وقد تصدى له مجمع دمشق إبان إنشائه وأبجزه في العقد الأول من حياته بنجاح باهر كما رأينا، وتصدى لمثله في مصر مجمع القاهرة فكُلِّف مراجعة بعض كتب التعليم الثانوي التي يعاد طبعها سنويًا^(٢٥). وستبقى معالجة مثل هذه الموضوعات في مكتبة المجمع دائمًا، إلا أن البيئة التي تنشأ فيها ليست البيئة المواتية لتنشئة مجتمعيين، أي ليست البيئة التي نحن بصدد البحث عنها، لأن العمل في مثل هذه الموضوعات لا يتطلب بالضرورة من العاملين جهدًا يبذل في بحثٍ مُعمَّقٍ مؤهَّلٍ للإبداع. أما المسائل الأساسية، وهي التي استعصى حلها في القرن الماضي على الأقل، كمسألة تيسير النحو العربي، الذي لم تجد في تيسيره على الوجه المطلوب، دراساتٌ عديدة في كثير من الجامعات العربية وخارجها، فلا بد في التصدي لها، ومثيلاتها من المسائل (أو الموضوعات)، من اعتماد منهجية البحث العلمي، في خطة بحثٍ علميٍّ لغويٍّ عميقٍ ومديدٍ في مجال الموضوع، وفيما يمكن أن تدعو الضرورة إليه مما حوله، وقد يتوسع مجاله فيتوزع على محاور أو وحداتٍ ينتظم عملها في مشروعات بحوث دبلومات عليا، يمكن أن يساهم بعض أعضاء المجمع الحاليين في تحديدها، وأن يشاركوا في الإشراف عليها. في هذه البيئة، وفي بحوثها يمكن أن تنشأ وتنمو على محاورها وفي وحداتها نوى حلول المسائل الأساسية وما استعصى تيسير معالجته من الموضوعات المعقدة. إنها البيئة المنشودة المواتية لتنشئة مجتمعيين مبدعين في سنٍّ مبكرة نسبيًا، يختارون بعناية من بين المجازين الشباب، لإعداد دبلومات دراساتٍ عليا يحدّد المجمع أنواع اختصاصاتها وينظمها

(٢٤) ينظر إبراهيم مذكور: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا، مرجع سابق، الصفحة ٦٠.

بالتعاون مع الجامعات. إن متابعة إعداد هذه النخبة من المجازين متابعةً حثيثةً، كفيلة بتطوير البيئة العلمية تدريجيًا في المجمع، وبدخول بعض من خيرة الباحثين الذين تكوّنوا فيه أعضاء عاملين. ولا يعني اتباع هذا الأسلوب قصرَ عضوية المجمع عليهم ولكنّه سيخفف من حدة ارتفاع متوسط عمر الأعضاء ويسعى به إلى الانخفاض. كما لا يعني ما نقترحه الادّعاء بأنه هو الطريقة المثلى، فنحن جميعًا نعلم أن الحل الصحيح هو في إصلاح التعليم قبل الجامعي. لذلك فإن ما نقترحه ليس أكثر من ترميم الإعداد اللغوي في نطاق المجمع لفئةٍ مختارة، وفي غياب إصلاح تعليم العربية في التعليم قبل الجامعي.

ولا يمكن أن يتحقق انجذاب خيرة المجازين للعمل في المجمع وفق هذا المنهج، واستقرارهم فيه بعد إعدادهم علميًا في التخصصات التي يخطط لها المجمع، إلا بإحاطتهم برعايةٍ معنويةٍ وماديةٍ كالتّي يتمتع بها أقرانهم في الجامعات ومراكز البحوث، والتي يمكن تحقيقها في المجمع بإحداث هيئةٍ للبحث العلمي على غرار مثيلاتها في مراكز البحوث التي اتسقت أحكام تنظيمها مع الأحكام الناظمة لهيئة التدريس في الجامعات.

هذه هي أهم ملامح التطوير المستقبلي لقانون المجمع وأساليب عمله، إنه يفسح المجال لنشوء هيئة متجددة الحيوية من الباحثين الأكفاء في جميع شؤون ترقية اللغة العربية، وفي بيئة يمارس فيها البحث العلمي اللغوي وفق الأنظمة والأساليب السائدة في فعاليات البحث العلمي، التي ستؤهل بعضهم للرقى بجدارة لعضوية المجمع. وإن هذا التطوير هو استكمال للتطوير الذي بدأناه مع بداية هذا القرن، إنه ينقل المجمع من مؤسسةٍ تحكمها خبرة أفراد في وضعه الحالي إلى وضع جديد يصبح فيه مؤسسة بحوث لغوية خبيرة. ولقد أشرنا من قبل^(٢٦) إلى أن بعض

(٢٦) ينظر عبد الله واثق شهيد: المجامع، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨١

الجامع في ألمانيا وروسيا وبلدان الاتحاد السوفيتي سابقًا وغيرها نُحِتَ هذا النحو. ويذكرنا الجدل الذي نشأ في المجمع حول مشروع المحاضرات في ربيع عام ١٩٢١ بأن التوجه بالمجمع ليكون مركز بحث لغوي كان قائمًا في أذهان الكثيرين، وبأن فئة كانت «لا ترى أن تكون المحاضرات من وظائف المجمع لأنه مركز للأبحاث اللغوية والأدبية الخاصة..»^(٢٧).

ولا يغيب عن أذهاننا أن البحث في الجامع مغاير للبحث الجامعي من حيث الأسلوب والهدف. فهو في الجامع له وجه تطبيقي ملزم، نلمسه بوضوح في قيام الجامع بتصحيح الكتب المدرسية وإصلاح لغة الدواوين وأغلاط الكتاب، أما في الجامعات فلا يقيد هذا الالتزام. وقد نعود في دراسة أخرى إلى مقارنة أوسع بين البحوث في الجامع ومراكز البحوث عامةً والبحاث في الجامعات من جهة، وبين الجامع التي تقوم بالبحث العلمي واللغوي وتنظمه والجامع التي لا تراوله على هذا الوجه من التنظيم والاحتراف من جهة أخرى، والتي تبقى أقرب إلى فكرة الجامع اللغوية الأصيل بالماضي منها بالحاضر، «وأقرب إلى القرن السابع عشر منها إلى القرن العشرين»^(٢٨).

الصفحتان ٤٨١ و٤٨٢.

(٢٧) ينظر أحمد الفتيح: تاريخ المجمع العلمي العربي، مرجع سابق، الصفحتان ٧٤ و٧٥ والصفحتان ٤٣ و٤٤ من هذه الحلقة.

(٢٨) ينظر إبراهيم مدكور: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عامًا، ماضيه وحاضره، القاهرة، ١٩٦٤، الصفحة ٢.